

# يوميات سفينة فرنسية في زرك

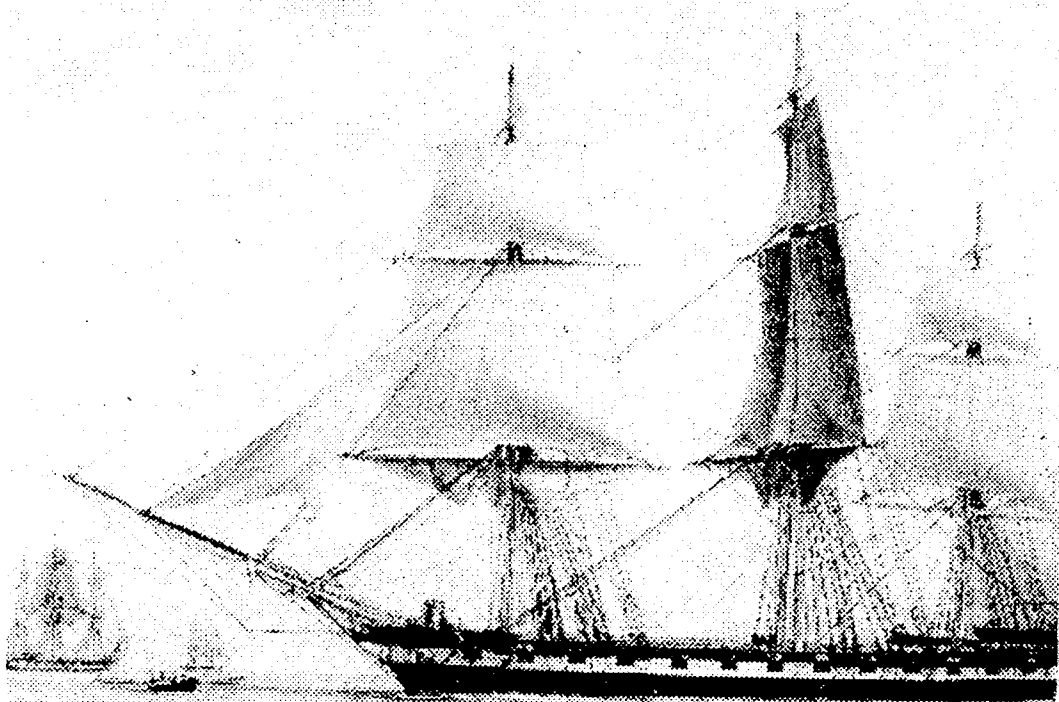
بقلم : زافير بيجوين بليكوك

كانت الرياح شديدة صباح يوم ٣ يونيو عام ١٨٤١م . وفي تمام الساعة ١١,٣٠ أبحرت الفرقاطة الخفيفة الجميلة (لافاووريت) حمولة ٧٥٢ طناً مزودة ب ٢٤ مدفعاً وعليها طاقم مكون من ١٦٤ بحاراً، تحت قيادة القبطان الجريء (ثيوجين بيج)، أبحرت من ميناء "بريست" . وودعتها مجموعة من البريتانسيين بفخر واعتزاز وسط هتافات حماسية .

وكانت السفينة واحدة من القوات البحرية للملك الفرنسي (لويس فيليب الأول) . ورفعت المرساة استعداداً للرحلة الطويلة حول رأس الرجاء الصالح إلى المحيط الهندي والخليج العربي والبحر الأحمر . ومن هناك كان عليها أن تواصل رحلتها إلى الشرق الأقصى حتى الصين وإلى شواطئ نهر الهانج "يانجتسي" أو النهر الأزرق" .

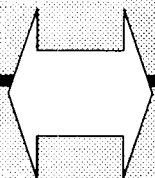
وكانت رحلتها عبر البحار الشرقية خاصة إلى الخليج حدثاً تاريخياً لأن الحكومة الفرنسية، لأول مرة، ترسل سفينة في مهمة إلى الخليج، على وجه الخصوص إلى عاهل دولة البحرين . (الشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة) .

# أثرها للبحرين عام ١٨٤٢م



## البحرين منذ ١٥٠ عاماً عيني قبطان فرنسي

ترجمة مركز الوثائق التاريخية  
ب.ك. نارايين



الوثيقة ١٣

وكان لأرخيبيل البحرين تاريخ مجيد، وزيارة "لافاووريت" له كانت زيارة ذات أهمية بالغة . وتلقى قائد السفينة وطاقمها ترحيباً حاراً أميرياً من كل من الحاكم، (الشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة)، والأسرة الحاكمة والحكومة والشعب طبقاً لكرم الضيافة العربي المعروف .

وطال أمد المهمة الدبلوماسية إلى البحار الشرقية من ٣ يونيو ١٨٤١م إلى ٦ مايو ١٨٤٤م، وقد جاءت في أعقاب مهمة شهيرة كثيفة وإن كانت مهمة تاريخية مجيدة بعد بضعة أشهر . مما استدعى إعادة تجهيز السفينة . وكانت المهمة الأولى تخص جزيرة (سانت هيلينا) في جنوب البحر الأطلسي وكانت مهمة (لافاووريت) فيها حدثاً دخل ذاكرة التاريخ بشكل دائم . وهي عبارة عن نقل رماد (نابليون الأول) الذي توفي في ٥ مايو ١٨٢١م في تلك الجزيرة المهجورة إلى قصره في (لونجوود) .

وكان للفرقاطة الرفيعة الجميلة دور في المهمة الفرنسية الدبلوماسية الأولى في جزر البحرين وكذلك في كفاح (الشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة) .

وفي ٧ يوليو ١٨٤٠م غادر الأمير (دي جوانفيل) ابن الملك (لويس فيليب)، (طولون) على رأس أسطول صغير لجمع الرماد، مكون من كل من الطراد (لا بيل بول) والفرقاطة (لافاووريت) والسفينة الشراعية (لورستي) .

ثم عاد الأسطول إلى (شربورج) في ٣٠ نوفمبر ١٨٤٠م مع رماد (نابليون) الذي كان يسبب الرعب للملوك في كل مكان لحوالي ٢٠ عاماً . وتم نقل الرماد عبر نهر (السين) إلى باريس . وأخيراً وفي ١٥ ديسمبر، وهو يوم بارد جداً، دفن رماد نابليون رسمياً في قبة (أنوالدي) ووقف سكان باريس بصمت واحترام أمام موكب ضم كبار الشخصيات والجنود من حامية باريس . وفي مؤخرة الموكب سار حرس خاص للإمبراطور مكون من ٥٠٠ بحار ذوي خبرة من طواقم (لابيل بول) و (لافاووريت) وهم يسيرون في وقار وراء الأمير (جوانفيل) بعد أن أدوا مهمة الحراسة منذ لحظة استلامهم الرماد القيم من مدفعية الجنرال (ميدلور)، محافظ (سانت هيلينا)، في أحواض (جيمس تاون) حتى دفن (نابليون) في القبة الذهبية في (أنوالدي) التي كانت قد تم تخصيصها من قبل (لويس ١٤) وشييدها المهندس المعماري (جولس هاردينمانسرت) . وقد شهد المراسم صاحب الجلالة ملك فرنسا وجميع أفراد العائلة الحاكمة .

وبينما كان لا يزال تحت تأثير وروعة المراسم المرتبطة بدفن رماد جثمان (نابليون)، غادر طاقم (لافاوريت) تحت قيادة القبطان (ثيوجين فرانسوا بيج) إلى أماكن بعيدة لمغامرات رائعة جديدة . وكانت المهمة التي دامت ثلاث سنوات في المياه الهندية وعبر الخليج العربي ذات أهمية خاصة وجاء شرحها مفصلاً واضحاً في تعليمات صادرة من الملك ووزرائه على السواء . وكانت مبنية على الأوامر الصادرة من (لويس فيليب الأول) وحكومته . وكذلك على تبادل المراسلات بين (فرانسوا جيزوت)، وزير الخارجية، والأميرال (بارون دوبيري) وزير البحرية .

ولما عادت (لافاوريت) سفينة الملك إلى فرنسا في ٦ مايو ١٨٤٤م - بعد أن أدت خدمات جليلة) شاء القدر أن تكون هذه الرحلة هي رحلتها الأخيرة . ورسومها الرسام الشهير (فرانسوا روكس) بالألوان بشكل لطيف . وتوجد هذه الصورة في المتحف البحري في باريس . وعقب عودتها إلى (بريست) تم إخراج السفينة - المصنوعة في طولون عام ١٨٢٧م - من الخدمة، كما تم تجريدها من السلاح وشطبها من قائمة السفن البحرية الفرنسية .

وأثناء رحلتها الطويلة أعد القائد (بيج) السجل الشخصي للسفينة . وكتب ملاحظاته الدقيقة باختصار عن أنماط الحياة على ظهرها، ووصف الموانئ التي زارتها . وشملت ملاحظاته المواضيع العلمية والجغرافية والاقتصادية والسياسية وتضمنت آراءه واستنتاجاته . واكتسبت كتاباته أهمية أكثر بسبب الرسوم والصور التي أدخلها بين النصوص .

وقد بذل القائد (بيج) اهتماماً خاصاً بإقامته في البحرين بخلاف الآخرين .

قامت الفرقاطة الملكية الخفيفة (لافاوريت) بزيارة (الشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة)، عاهل جزر البحرين وتوابعها، في يناير عام ١٨٤٢م . وكانت هذه المناسبة فريدة لأنها أقامت علاقات دبلوماسية لأول مرة بين فرنسا والجزر الخليجية الشهيرة التي مارست نفوذاً فوق العادة في تاريخ الشرق الأوسط والحضارات العالمية . فقد كانت البحرين بلاد دلون في الألفية الثالثة قبل الميلاد . وكانت هذه البلاد تفخر بحضارة عريقة ساطعة تعود أساطيرها المنقوشة على الألواح الطينية إلى حضارة (سومر) . وقد دونت البلاد ملحمة (جلجامش) الرائعة الجميلة التي تنافس (الإلياذة) و (الأوديسة) .

وقد أشار (أريان) المؤرخ الإغريقي في القرن الثاني إلى أرخبيل البحرين باسم جزيرة (تايلاس) في كتابه التاريخي عن الإسكندر الأعظم .  
ومن الآن فإن زيارة السفينة الجميلة (لافاوريت) التاريخية للبحرين سوف تربط هذه الجزر بملحمة نابليون .

وهكذا من خلال اندفاع جريء في نهاية الجولة، تعانق السفينة الفرنسية مغامرتين تاريخيتين معاً، أي إعادة رماد جثمان نابليون إلى باريس من جهة، وإقامة علاقة دبلوماسية من جهة أخرى .

### "لافاوريت في البحرين - ١٨٤٢م"

كانت ظروف الطقس قاسية عندما وصلت لافاوريت إلى شواطئ البحرين صباح الثلاثاء ١٨ يناير ١٨٤٢م بعد أن توقفت قليلاً في كل من مسقط في عمان وفي كنگون وبوشهر وجزيرة خرج على الشاطئ الإيراني .

وقد عقدت مناقشات طويلة حول بعثة الفرقاطة الرفيعة إلى الجزيرة العربية في باريس في قصر (تويلريس)، مقر حكومة لويس فيليب لأن مسألة "الشرق" كانت آنئذ موضع نقاش ساخن في كواليس السفارات الأوروبية منذ القرن الثامن عشر .

### تعليمات الحكومة الفرنسية

وقد زادت حدة التوتر الدبلوماسي عندما غادر القبطان (بيج) ميناء (بريست) في ٣ يونيو ١٨٤١م حاملاً معه تعليمات وزارية مفصلة .

### التعليمات الصادرة من وزير الخارجية

كتب وزير الخارجية (فرانسوا جيزوت) مذكرة سياسية في ١٢ مايو ١٨٤١م وجهها إلى الأميرال (بارون دوبيري) وزير البحرية والمستعمرات، لإحاطة قبطان (لافاوريت) علماً بها . وكانت المذكرة عبارة عن ملخص للوضع الدبلوماسي في الخليج

وموقف فرنسا تجاهه ، وموقف الملكية الفرنسية نحو ملوك المنطقة وتحركات الإنجليز الذين كانوا يعملون دائماً لتعزيز مكانتهم في تلك المنطقة .

قال وزير الخارجية لوزير البحرية : "عندما خابرتني بأنك اخترت (بيج) قائد الفرقاطة (لافاوريت) ليكون على رأس مهمة استكشافية في الخليج والبحر الأحمر ، أعربت عن رغبتك في أن أرسل لك تعليمات لإطلاعه . وأشرح له الجوانب السياسية لمهمته والأمور الخاصة موضع اهتمام وزارة الخارجية . وهذه المذكرة استجابة لطلبك" .

"ليست لفرنسا مصالح سياسية أو تجارية مباشرة في الخليج وبصفة عامة هذا هو الموقف بشأن إيران أيضاً . لأن الصراعات المعارضة لإنجلترا وروسيا فيها قد انتهت . وكما كان متوقعاً ، كانت النتيجة لصالح القوة التي بسبب موقعها الجغرافي وتفوقها العسكري تمتعت بثقل أكثر بشكل متواصل في إيران وهي روسيا ، فهي الأقوى . وهناك عنصر جغرافي أدى إلى سيطرة الإنجليز على الخليج بشكل طبيعي لأنها قوة بحرية وتحكم الهند . فتسيطر إنجلترا على الأوضاع . ودون شك فإن إنجلترا مصممة على فرض سيطرتها على الخليج لأنه يمهّد الطريق لها للوصول إلى نهر (الفرات) . وبواسطة استخدام السفن البخارية في النهر تحاول بريطانيا أن تقيم ممراً يربط مباشرة بين أوروبا والهند . وربما هذا مرتبط باحتلال الإنجليز لجزيرة (خرج) في ١٨٣٨م بحجة نزاعها مع طهران آنئذ . وتشكل جزيرة خرج في الحقيقة مركزاً عسكرياً في الخليج يهدد إيران . وتسيطر (خرج) على (الفرات) وتراقب التجارة مع كل من بغداد والبصرة . وقد حاولنا من جهة أخرى ، مرات عديدة أن نقيم علاقات مع إيران عن طريق الخليج دون جدوى" .

"وفي العام الماضي أقامت حكومة الملك ، قنصلية في بوشهر حافزاً لإقامة علاقات متبادلة . لكن عرقلت الحكومة الإيرانية هذا المجهود وأفشلت تنفيذ الخطة ، مما أدى إلى تجميد الأمور على ما كانت عليه ، وربما تستمر على هذا المنوال لمدة طويلة . وإن الحجم التجاري الصغير المتبادل بيننا وبين إيران يمر عن طريق (القسطنطينية) و(أرضروم) و(طوروس) . وهي تجارة غير مباشرة لأن تجار الشرق يشغلونها على وجه الحصر وهم يسافرون إلى (القسطنطينية) لعرض بعض منتجاتنا مقايضة ببعض البضائع الإيرانية التي تصلنا عن طريق سمرنا (أزمير)" .

"وأريد أن أكرر بأننا ليست لنا مصالح مباشرة في الخليج . ورغم ذلك، علينا أن نتابع وندرس تحركات إنجلترا ومبادراتها لتوسعة قوتها . وهذا هو الغرض الرئيسي وراء ابتعاث الفرقاطة (لافاووريت) تحت قيادة القائد (بيج) للمنطقة . فعليه أن يدرس الأوضاع السياسية والعسكرية والتجارية التي أوجدها الإنجليز في المنطقة لصالح أنفسهم، وكذلك الظروف السائدة في خرج والقلعة التي يبنونها في المنطقة، وأوضاع الملاحة في (الفرات) وكل شيء بصفة عامة قد يكون موضع اهتمامنا . وفي رد على مذكرة (جيزوت) قال الأميرال (بارون دوبيير) وزير البحرية في ٢٢ مايو ١٨٤١م مؤكداً تعليماته للقائد (بيج) أن يلتزم بتنفيذ تعليمات وزير الخارجية بدقة . كما طلب منه أن يدون سجلاً للسفينة ويرسل التقارير المفصلة لباريس بانتظام . وأضاف وزير البحرية من جانبه، نصاً لـ "اتفاقية لندن" المبرمة في ١٥ يوليو ١٨٤٠م حول "مسألة الشرق" (عرقلت إنجلترا متعمدة انضمام فرنسا إلى الاتفاقية) . وطلب وزير البحرية من قائد (لافاووريت) أن يتجاهل الاتفاقية ويتصرف بلطف وعطف مع الأطراف الذين وقعوا عليها خاصة مع الإنجليز إذا صادف وقابل أحداً منهم ."

"تبحر الفرقاطة (لافاووريت) إلى جزيرة (بوربون) وتمكث فيها برهة للتزود بالماء والمؤونة . ومن ثم تتجه إلى كل من البحر الأحمر والخليج وعند العودة إلى بحر الصين تقوم بمهمتها في هذه الأماكن . وحين ينفذ القائد التعليمات الملحقة الصادرة من وزير الخارجية . وعقب الوصول إلى (بوربون) عليك أن تنقل هذه التعليمات إلى نائب الأميرال (دي هيل) وهو محافظ المستعمرة . وتطلب منه النصيحة نظراً لأنه واسع الاطلاع عن هذه الأماكن، وكثير الاتصال بالهند والبحر الأحمر والخليج . وعليك أن تنفذ الأوامر التي تتلقاها منه . "وأثناء رحلته، على القائد (بيج)، إن أمكن، أن يأخذ بعين الاعتبار فرص إرسال بعثات تجارية إلى الولايات الجنوبية في إيران ."

### تعليمات وزير البحرية

"وفي هذه الحملة المشوقة، عليك أن تسجل كل ما شاهدت ولمست في مجالات الملاحة والتجارة والعلاقات مع البلدان التي هي موضع دراستك . ولوصيك بأن تنتهز كل فرصة لتعد تقريراً وترسله لي تعالج فيه تحركاتك وعملياتك التي قمت بها أثناء رحلتك ."

"(...) إنك على علم بأن فرنسا امتنعت عن الانضمام إلى الاتفاقية التي وقعت عليها أربع دول في ١٥ يوليو، وفي مثل هذه الظروف لا تعتبر فرنسا دولة حليفة لتلك الدول . ورغم ذلك تبقى فرنسا دولة صديقة لها فيجب عليك أن تتعامل مع قادة سفن تلك الدول بلطف مثلما كان الوضع قبل إبرام اتفاقية ١٥ يوليو ١٨٤٠ م ."

"لقد عهدت إليك بمهمة ذات أهمية بالغة وإني متأكد بأنك سوف تقوم بواجبك بأحسن وجه لتفديد القوات البحرية من ناحية وتستحق الفخر والاعتزاز بما قمت به ."

إن مهمة (لافاوريت) تحمل أهمية بالغة في منظور وزير البحرية في وقت تبلورت فيه "مسألة الشرق" مما أثار اهتماماً في أوساط السفارات الأوروبية نتيجة للتوقيع على اتفاقية لندن في ١٥ يوليو ١٨٤٠ م . ومنعت حكومة (اللورد بالمرستون) فرنسا متعمدة عن المشاركة في هذه المبادرة الدبلوماسية . وقد أدى الموقف البريطاني إلى تأزم العلاقات بين لندن وباريس غير أنها في بادئ الأمر كانت ودية من جهة رسمية .

### "مسألة الشرق"

كان المراد من اصطلاح "مسألة الشرق" الإشارة إلى كافة القضايا المنبثقة عن اضمحلال الإمبراطورية العثمانية وإمكان محوها كلية . فواجهت الدبلوماسية الأوروبية هذه المسألة منذ القرن الثامن عشر وفيما بعد . وإن التزامن بين الحركات الوطنية المتفاقمة في البلقان والتنافس بين القوى الكبرى قد أضرب بمصالح الباب العالي العثماني ، وخلق جواً لإثارة "مسألة الشرق" ، وامتد هذا الصراع في وقت لاحق للمناطق الأخرى في الإمبراطورية خاصة الأقاليم العربية تحت الاحتلال العثماني . وما بقي من الإمبراطورية عرف باسم العضو الفاشي في المجتمع الأوروبي . وبدأت مجابهات داخلية ما بين كل من النمسا وروسيا وإنجلترا وفرنسا .

وكانت الولايات العثمانية في (البلقان) المتاخمة للنمسا ذات أهمية بالغة لـ (النمسا) التي كانت تريد أن تعرقل تقدم روسيا نحو المياه الدافئة . وكانت تحاول أن تفتح لها ممراً من المضائق إلى البحر المتوسط والمحيط الهندي عن طريق الخليج بواسطة ممارسة ضغط أو فرض سيطرة على القسطنطينية .



ومن جهة أخرى، شعرت الحكومة الإنجليزية بأن أي انتهاك لاستقلالية الإمبراطورية العثمانية يهدد الطريق إلى الهند . فكان لابد لحكومة إنجلترا من أن تسيطر على البحر الأحمر والخليج والمحيط الهندي والمناطق الحدودية دون أن تسمح لأية قوة أوروبية خاصة فرنسا أن تكسب موطئ قدم في المنطقة .

### اتفاقية لندن (١٥ يوليو ١٨٤٠م)

كان الوثام الدولي بين إنجلترا وفرنسا في أزمة لأن الحكومتين كانتا مضطرتين لإرضاء المشاعر الوطنية لبعض الأفراد الغاضبين الذين كانوا تحت تأثير التنافس التقليدي بينهما . وإضافة إلى ذلك، كان (لويس فيليب) شديد الحرص على الدخول إلى زمرة الملوك المستقلين بإقامة علاقات ودية مع ملوك أوروبا .

وقد أثارت "مسألة الشرق" أزمة أخرى مما جعل الشقاق بينهما رسمياً . عندما هزم محمد علي حاكم مصر، الجيش التركي المهاجم، واحتل إقليم آسيا الواقع بين البحر الأسود والبحر المتوسط مرة أخرى (١٨٣٩م) . فقررت القوى الأوروبية التدخل في الأمر لتفرض الأمن والسلام لكن حكومتى فرنسا وإنجلترا لم تتفقا على الشروط التي يجب أن تفرض على المحاربين . وكانت فرنسا تؤيد حاكم عام مصر قائد الجانب العربي المفضل . وكان محمد علي قد اختار فعلاً عدداً من المستشارين الفرنسيين كالمهندسين والعلماء للمساعدة في تنمية بلاده .

غير أن رئيس الوزراء البريطاني (اللورد بالمرستون) منع فرنسا من المشاركة في المفاوضات السرية الدائرة مع القوى الكبرى الأخرى (النمسا وبروسيا وروسيا) ذات العلاقة بالموضوع . ووصلت هذه البلدان إلى اتفاق معروف بـ "اتفاقية لندن" تم التوقيع عليها في ١٥ يوليو ١٨٤٠م . ووضعت الاتفاقية الشروط الإلزامية التي تفرض على محمد علي . ومثلما حدث سابقاً في ١٨١٥م امتنعت فرنسا عن الانضمام إلى التحالف . وهكذا اتخذت "مسألة الشرق" شكل أزمة أوروبية حادة .

وشملت بنود الاتفاقية تعهد الحكومات الأربع بالمساهمة في إجبار حاكم مصر على أن يوافق على المعاهدة ويشرح فيها طبيعة علاقاته مع الباب العالي (الإمبراطورية العثمانية) ويذكر حدود الولايات التي كان الباب العالي يمنحها له .

وإذا رفض ذلك يجب ممارسة ضغط صارم عليه "بناء على طلب من السلطان العثماني". وإذا جرؤ الحاكم المصري على مقاومة القسطنطينية في البر أو البحر فيأخذ الحلفاء، بناءً على دعوة من السلطان، ما يلزمهم من الخطوات لحماية مضيق البوسفور والدردنيل ضد أي هجوم. وكذلك يفرض حصار صارم حول مصر لمنعها من استخدام أي مخرج بحري للوصول إلى سوريا.

وكانت اتفاقية لندن، نتيجة سياسة (المارستون) التي اتبعتها منذ ١٨٣٣م ونفذها دون. هوادة، في حين كانت سياسة فرنسا ومصر غير متماسكة. كما كانت سياسة (محمد علي) متزعزعة وغير دقيقة. ومقابل ذلك كان (المارستون) مقتنعاً بما يريده. ولم يرغب (المارستون) في مشاركة أي طرف في كسب الغنائم بانهيار الدولة العثمانية وخاصة في امتلاك بقايا الأقاليم العربية كفلسطين وبلاد الرافدين وشبه الجزيرة العربية. غير أن محمد علي كان يؤمن باستقلال البلاد العربية وكان يمثل خطراً للمخططات الإنجليزية.

ووضعت "اتفاقية لندن" في صيغتها النهائية دون علم فرنسا وكانت معادية لفرنسا وحليفاتها مصر. وكان الغرض منها الحيلولة دون انهيار الإمبراطورية العثمانية. ووضعت الاتفاقية صيغة لحرب علنية مكشوفة في حين حاول (لويس فيليب) تفادي خطر الحرب. وفي الحقيقة في ١٨٤٠م اعتبر الملك الفرنسي، رئيس المجلس، وزير الخارجية (أدولف تيرس) ميالاً للغاية إلى القتال فعين (فرانسوا جيزوت) الذي كان سفير فرنسا في لندن) ليحل محله بسبب موقفه الودي نحو إنجلترا.

وكان هذا هو موقف السفارات الأوروبية تجاه الشرق الأوسط. ولكن عندما وصل القائد (بيج) إلى البحرين قرر أن يدرس الأوضاع عن كثب من جديد في ضوء "مسألة الشرق" الشهيرة.

### البحرين في عام ١٨٤٢م

وفي بيئة ضبابية للرغبات المتضاربة، قام القائد (بيج) بزيارة (الشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة)، عاهل الجزر البحرينية وتوابعها. وجاءت زيارة القبطان الفرنسي للبحرين في ١٨٤٢م في وقت حرج للغاية في الحياة السياسية للدولة التي تحكمها أسرة آل خليفة.

كان (الشيخ عبد الله بن أحمد) رجل دولة وسياسياً محنكاً داهية وله خبرة ٤٧ عاماً في إدارة الحكم . وانتسب إلى سلالة حاكمة من قبيلة عربية عريقة تسمى (العتوب) ويرجع أصل أسرة آل صباح الحاكمة في الكويت أيضاً إلى العتوب .

## العتوب

وفي أواخر القرن السابع عشر كانت الصحراء تتعرض لموجة من الجفاف مما أدى إلى هجرة قبيلة العتوب من وسط الجزيرة العربية واستيطان الساحل الخليجي بالقرب من مدينة قرين (الكويت اليوم) . وكان ذلك الإقليم آنئذ تحت حكم بني خالد . وقبل سنين وكان رئيسهم الشيخ براك الخالدي قد شيد قلعة صغيرة بالقرب من مدينة القرين وتعني الكويت القلعة الصغيرة . والشخص الذي ذكر الكويت لأول مرة هو الدكتور إدوارد آيفيس ، وأشار إليها باسم "قرين" في ١٧٥٨م . والرحالة الألماني الهولندي (كارستن نيبور) كان أول من استخدم كلمة الكويت في خريطة جغرافية (١٧٦٥م) .

وقد رحب بنو خالد بالوافدين الجدد بحماس وسمحوا لهم بمزاولة التجارة وصيد السمك . وكانت قبيلة العتوب تتكون من ثلاث أسر رئيسية هي : آل صباح وآل خليفة وآل جلاهمة .

## آل خليفة

وفي عام ١٧٦٦م هاجرت عشيرة آل خليفة من قبيلة العتوب وعلى رأسهم (الشيخ محمد بن خليفة)، من الكويت واستوطنت الزبارة على الساحل الغربي لقطر ومارست تجارة رابحة واسعة . وهكذا بدأ التاريخ الحديث في المنطقة وكان آل خليفة مجتهدين وزادوا قوة واعتزازاً في الزبارة، وازدهرت تجارتهم وأنشأ آل خليفة أسطولاً بحرياً كبيراً . وحولوا قريتهم إلى مدينة كبيرة مزدهرة وبنوا فيها قلعة باسم قلعة مرير . توفي (الشيخ محمد بن خليفة) في الزبارة في ١٧٧٦م وترك وراثته لابنه (الشيخ خليفة بن محمد) لكنه توفي وهو يقوم بفريضة الحج في مكة في عام ١٧٨٢م فنقلت السلطة إلى أخيه (الشيخ أحمد بن محمد) المعروف بـ (أحمد الفاتح) وبعد قليل انضم إليهم أقاربهم (الجلاهمة) في الزبارة .

وسرعان ما نشبت خلافات داخلية بينهم، وهاجر (الجلاهمة) إلى (الرويس) حيث لجأوا إلى القرصنة تحت قائد قوي اسمه (الشيخ رحمة بن جابر) . ومات (رحمة) في ١٨٢٦م . وفي وقت لاحق قضى آل خليفة وحلفاؤهم على (الجلاهمة) تماماً ولعبت القرصنة دوراً هاماً في تاريخ المنطقة .

أدى الاحتلال الإيراني للبصرة من ١٧٧٦م إلى ١٧٧٩م إلى تدفق البضائع إلى (الزبارة) التي أصبحت مركزاً للتجارة وصيد اللؤلؤ في شرق الجزيرة العربية . وتصدت (الزبارة) لهجمات إيرانية متعددة . وفي أغسطس ١٧٨٣م تحالف (الشيخ أحمد بن محمد آل خليفة) مع العتوب في الكويت (أي آل صباح) ونظم حملة ضد الحامية الإيرانية في البحرين التي كانت تحت الحكم الإيراني آنئذ . وأصبح (الشيخ أحمد بن خليفة) أول عاهل عتوبي على البحرين وسمي (أحمد الفاتح) ، غير أن مقر حكم آل خليفة ظل في الزبارة في قطر وسكن فيها (أحمد بن محمد) حتى توفي في ١٧٩٦م .

### الشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة

وعند وفاته نقل (الشيخ أحمد بن محمد آل خليفة) سلطاته إلى ابنه مشتركين . فأصبح (الشيخ سلمان بن أحمد) و (الشيخ عبد الله بن أحمد) حاكمين للبحرين معاً .

لكن الشيخ (سلمان بن أحمد) توفي في ١٨٢٥م وترك سلطته إلى ابنه (الشيخ خليفة بن سلمان) الذي شارك عمه في الحكم . وتوفي (الشيخ خليفة بن سلمان) في ١٨٣٤م . ثم تتابعت الأحداث حتى أصبح (الشيخ عبد الله بن أحمد) عاهل البحرين الوحيد . وفي هذه الفترة من ١٧٨٣م إلى ١٨٣٤م ازدهرت دولة آل خليفة اقتصادياً مما أثار الحسد بين جيرانها وكذلك إنجلترا . كانت البحرين قد أصبحت مركزاً ريادياً في تجارة اللؤلؤ كما امتلكت أسطولاً كبيراً لصيد اللؤلؤ . وراقبت البحرين تجارة اللؤلؤ بشأن اللائى التي يتم صيدها في الساحل الجنوبي للخليج - أي (القطيف والبحرين وقطر وأبوظبي ودبي والشارقة وعجمان وأم القيوين ورأس الخيمة) وفي بحر عمان (دبا والفريجة وخورفكان وصحار ومسقط) .

وفي فترة حكمه الطويل اهتم (الشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة) بموضوعين هامين : أولاً النزاعات العائلية مع أبناء عمه من فرع (الجلاهمة) خاصة بالمؤامرات التي دبرها (رحمة بن جابر) . وثانياً، مواجهة التهديدات الخارجية ومحاولاتها لفرض سيطرتها على الدولة الخليفية الغنية متمتعة بموقعها الاستراتيجي .

### رحمة بن جابر

استوطن الجلاهمة خور حسان (تسمى الخوير اليوم في قطر) واكتسبوا قوة ونفوداً في قطر في ١٨٠٩م تحت قيادة القائد الشهير الماكر (رحمة بن جابر) .

كان (رحمة) بن (الشيخ جابر الجلاهمة) ينتسب لفرع من قبيلة العتوب، ولديه كراهية بالغة لأبناء عمه من آل خليفة . وبدأت خصومته عندما طرد عمداً من البحرين وحرّم من التمتع بالانتصار على الحامية الإيرانية وفرض آل خليفة سيطرتهم على الأرخبيل فصمم رحمة على الانتقام من أبناء عمه، وأعد أسطولاً وقوة عسكرية ليشن حرباً ضد مصالح آل خليفة وكسر قوتهم في البر والبحر على السواء . ودخل في تحالفات بشكل مكشوف أو غامض مع الأطراف حسب الظروف ليخدم أغراضه .

وفي ١٨٠٩م، أيد رحمة، أمير نجد في غزوه للبحرين . وفي ١٨١٦م أيد الهجوم العماني على البحرين وقطر غير أن الجيش العماني هزم وأصبح الجيش النجدي حليفاً لآل خليفة ودمر قلعة (رحمة) في الدمام واضطر (رحمة) إلى الهروب إلى بوشهر في إيران .

وفي ١٨١٨م أذن (إبراهيم باشا) لرحمة بالإقامة في الدمام اعترافاً بمساعدته للقوات المصرية التي احتلت نجد والإحساء . وفي ١٨١٩م ساعد (رحمة) الإنجليز في غزوهم لقلعة رأس الخيمة . ورغم قلة قواته تحالف (رحمة) مع محافظ فارس الذي كان ينوي غزو البحرين . غير أنه لم يبق لديه إلا ثلاث سفن اصطدمت واحدة منها بالصخور وغرقت .

وفي ١٨٢٤م كان (رحمة بن جابر) لا يزال غاضباً من آل خليفة ورغم ذلك وقع على اتفاقية صلح معهم غير أنها لم تدم طويلاً . وفي معركة بحرية مع الأسطول العتوبي



الشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة

حوصر (رحمة) حتى وصل إلى درجة اليأس لكنه رفض أن يستسلم ونسف سفينته ونفسه بالبارود في ١٨٢٦م وكان على متنها ابنه (٨ سنوات) .

## الأطماع الخارجية

وفي فترة حكمه أبدى (الشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة) الحكمة والحنكة الدبلوماسية في إفشال المحاولات الخارجية لاحتلال البحرين، وطرد أسرتها الحاكمة وسلب استقلالها . وجاهدت جيرانها وإنجلترا للتدخل باستمرار في شئونها الداخلية .

تولى (الشيخ عبد الله بن أحمد) السلطة منذ ١٧٩٦م . واكتسب قدراً ملحوظاً من الخبرة الدبلوماسية والعسكرية والبحرية . وتمتعت البحرين بهذه الميزات مع الموقع الاستراتيجي والازدهار مما أثار جشع كل من العمانيين والموحدين السلفيين من نجد والإنجليز على السواء .

أولاً، طمع سلطان مسقط في أقاليمها . وفي ١٧٩٩م احتلت قوات (سلطان ابن أحمد البوسعيد) البحرين . وتحالف آل خليفة مع العاهل السلفي في نجد، للتخلص من الغزاة ولكن لم يستطيعوا إخراج العمانيين إلا في ١٨٠٧م .

وقد أصبحت الظروف معقدة لآل خليفة عندما رفض السلفيون المتشددون المنتصرون إعادة الحكم إلى أسرة آل خليفة في البحرين . وقرروا البقاء في الأربيل لأسباب دينية وعينوا محافظاً عليها من قبلهم . ونفوا آل خليفة إلى (الدرعية) . وفي ١٨٢٠م طرد آل خليفة السلفيين من ممتلكاتهم بمساعدة القوات الأنجلو - إيرانية .

هاجم العمانيون البحرين في ١٨١٦م ومن ثم في ١٨٢٨م دون جدوى . وفي ١٨٢٩م اضطر سلطان مسقط، (سعيد بن سلطان البوسعيد) للاعتراف رسمياً باستقلال الأربيل البحرين .

وتابعت إنجلترا عن كثب النزاعات الدائرة مابين العرب والعرب في الخليج وكانت حريصة على أن تصبح الحامي الوحيد للدول الخليجية وخاصة للبحرين كهدف رئيسي . وفي الحقيقة، منذ عام ١٨١٤م كانت إنجلترا تمهد الطريق لتحقيق هذا الهدف عن طريق القيم السياسي . وفي تلك السنة أقام (الشيخ سلمان بن أحمد آل خليفة)،

الحاكم المشترك مع أخيه عبد الله بن أحمد للبحرين علاقات مع المقيم السياسي البريطاني . وخابر المقيم، آل خليفة بأن بريطانيا ستبقى محايدة إذا هاجم العمانيون البحرين . ومقابل ذلك التزمت الأسرة المالكة بعدم ممارسة أي عمل قد يضر بمصالح الإنجليز .

وفي فبراير ١٨٣٠م وقع آل خليفة على اتفاقية صداقة عامة أو اتفاقية حسن سلوك لعام ١٨١٤م مع شركة الهند الشرقية لحماية استقلال الأرخبيل البحريني .

وفي ١٨٣٣م هاجم (الشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة) الأمير السلفي في نجد . واستولى على عدة مدن على الساحل الشرقي للجزيرة العربية (دارين وتاروت وسيهات والقطيف والدمام) . غير أن المشاكل الداخلية في الأرخبيل منعت من فرض سيطرته الكاملة . ودبر ثلاثة من أبنائه العشرة تمرداً ضده لانتزاع السلطة . وذهبوا إلى الحويلة في شمال قطر . وأرسل أبوهم حملة لكبح التمرد تحت قيادة (الشيخ محمد بن خليفة)، حفيد ابن أخيه . وتم إخماد التمرد فعلاً كما تم إعفاء الأبناء المتمردين .

وفي هذه الأثناء كانت مصر، بتأييد من سلطان مسقط، تريد التدخل في شئون البحرين الداخلية . لكن الإنجليز حذروا السلطان من أي تدخل في شئون البحرين . وألغيت مطالب (محمد علي) على البحرين عن طريق اتخاذ القوى الأوروبية خطوات مشتركة ضده في سوريا .

وفي ١٨٢٥م توفي (الشيخ سلمان بن أحمد) الحاكم المشترك ولم يبق سوى (الشيخ عبد الله بن أحمد) كحاكم وحيد لكنه طموحات حفيد ابن أخيه (محمد بن خليفة آل خليفة) المنتصر في معركة (الحويلة) . واجه ورغم ذلك نعم (الشيخ عبد الله بن أحمد) بفترة حكم آمنة لثمان سنوات مقبلة لأن حفيد ابن أخيه بقي بعيداً عن مسرح الأحداث طوعاً ولو مؤقتاً .

جاء القبطان (ثيوجين بيج) ليزور العاهل البحريني، (الشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة) الذي كانت فترة حكمه على وشك الانتهاء بعد بضعة شهور من هذا اللقاء الدبلوماسي في ١٨٤٢م عقب السنوات الثماني الهادئة .

وفي صيف عام ١٨٤٢م، بعد قليل من مغادرة الفرقاطة (لافاوريت) استعد (الشيخ محمد بن خليفة) بدعم من بريطانيا للقتال ضد (الشيخ عبد الله بن أحمد) .



منذ القرن الثامن عشر، كانت إنجلترا نشطة في فرض مراقبتها على ممر إلى جزر الهند الشرقية . وفي ١٨١٤م انتزعت (رأس الرجاء الصالح) من الهولنديين . وفي ١٨٢٠م فرضت اتفاقية السلام على حكام دول ساحل الخليج العربي (أبوظبي ودبي والشارقة وعجمان وأم القيوين ورأس الخيمة والبحرين) لوضع حد للقرصنة في الخليج . ووقعت البحرين على معاهدة الصلح في ١٨٢٤م . وفي ١٨٣٩م هزم الإنجليز سلطان عدن واستولوا على عدن .

ونظراً لأن الإنجليز كانوا أصلاً مهتمين بمصالحهم الخاصة فحسب، تحالفوا ضد الحركة التي تزعمها (محمد علي)، الحاكم المصري الذي كان يعمل جاهداً للتخلص من نير العثمانيين وتأسيس أمة عربية كبيرة . فوقعت كل من مصر والبحرين على اتفاق في ١٨٣٩م . وفضل (الشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة) دعم العروبة على الصلح مع بريطانيا .

وأغضبت الاتفاقية المبرمة بين (الشيخ عبد الله بن أحمد) و (محمد علي) الإنجليز الذين رأوا فيها خطراً مباشراً لنفوذهم في الخليج . وأصبح الوضع خطيراً أكثر بسقوط موقع استراتيجي على الساحل الإيراني بالقرب من شط العرب، أي جزيرة خرج . وشعر الإنجليز بأن البحرين خرقت بنود معاهدة ١٨٢٤م . وحاولت بريطانيا تخويف الحاكم البحريني باتخاذ الخطوات حفاظاً على مصالحها أو على الأقل تجنباً لعرقلة جهودها في تحقيق أهدافها .

وبدأ الإنجليز أولاً بنقل استيائهم إلى حاكم البحرين . وأرسلوا مبعوثاً له لكن دون جدوى . ثم أوفدوا له (الكابتن هينل)، المقيم السياسي في بوشهر بغرض إقناعه . ولم يعتن (الشيخ عبد الله بن أحمد) بالمبعوث البريطاني ومن ثم رفض موقف (هينل) الذي بدأ لطيفاً ثم لجأ إلى لهجة التهديد .

غير أن حاكم البحرين الكبير، المحنك المعروف بذكائه ودبلوماسيته رفض التهديدات الموجهة إليه والموقف العدائي الصارم الإنجليزي نحوه . وصرح الشيخ بهدوء وصراحة بأنه بصفته عربياً ومسلماً، كان عليه قلباً وقالباً أن يتحالف مع الشعوب العربية في المنطقة خاصة مصر التي أيدت ذلك .

ودفع ذلك الحكومة البريطانية إلى إيجاد حلين متطرفين لإفشال سياسته . أولاً ، بوضع حد لسياسة (محمد علي) . وثانياً ، إبعاد حاكم البحرين عن الحكم . كان اللورد (بالمرستون) مهتماً بشكل خاص بقضية البحرين ، فدبر حلاً ملائماً على المستوى الدولي ورأى أن أكثر الطرق فاعلية لإفشال الاتفاقية المصرية البحرينية هو في عزل (محمد علي) عن المسرح الدولي وإضعاف نفوذه على العرب . ومن أجل ذلك كان من الضروري تجنب وتجاهل فرنسا ، وحشد القوات التي كانت حريصة على إرضاء الباب العالي لأسباب مختلفة . وهذا هو التفسير وراء توقيع كل من إنجلترا وروسيا وبروسيا والنمسا على "اتفاقية لندن" في ١٨٤٠ م . ولم ترسل لفرنسا أية دعوة لحضور جلسة التوقيع بل إنها لم تبلغ بها .

وكان الغرض الأساسي لهذه الخطوة الدبلوماسية هو ضمان وحدة الأراضي العثمانية خاصة الأقاليم العربية منها . وتحدثت الاتفاقية مطالب (محمد علي) في الأقاليم العربية في الإمبراطورية العثمانية . وأضعفت الحركة نحو تكوين كيان عربي قوي . وكانت الخطة السياسية للإنجليز وحلفائهم تستهدف كسر القوة السياسية المصرية التوسعية . وقد نجح الإنجليز وانهزمت مصر في معركة (نزيب) في ١٨٣٩ م ، وسحبت قواتها من كل من نجد والإحساء في ١٨٤٠ م ، وانهزمت قواتها في سوريا في أكتوبر ١٨٤٠ م ، مما وضع حداً لطموحاتها التوسعية . وتم تقويض الاتفاقية المصرية البحرينية من الداخل .

وكان الحل الآخر البريطاني هو استبدال حاكم البحرين فكان لا بد من عزل (الشيخ عبد الله بن أحمد) من الحكم لجرأته ومعارضته للمخططات الإنجليزية .

بذر الإنجليز بذور الفتنة بين أفراد العائلة واستغلوا شيخوخة (الشيخ عبد الله بن أحمد) وفي يونيو ١٨٤٢ م - الموافق جمادى الأولى ١٢٥٨ هـ - أي بعد ستة شهور فقط من زيارة السفينة (لافاووريت) تعرض (الشيخ عبد الله بن أحمد) لهجوم من قبل حفيد ابن أخيه (محمد بن خليفة) ، الذي كان يسكن المنامة . لكن الشيخ المسن انتصر بسبب القوة البحرية والبرية الأقوى التي كانت لديه ، وانسحب (الشيخ محمد بن خليفة) إلى قطر من يناير إلى أبريل في عام ١٨٤٣ م حيث جند فيها مزيداً من الجند والحلفاء له ، وفي أبريل ١٨٤٣ م هاجم المنامة وحاصر قلعة أبو ماهر حيث كان (الشيخ عبد الله بن أحمد) محاصراً فيها في حين كان أبناؤه محاصرين في قلعة عراد . وانهزم (الشيخ عبد الله بن

أحمد) واستسلم وسمح له أن يغادر مع أفراد عائلته إلى الدمام، الإقليم الوحيد الذي كان لا يزال فيه ابنه، (الشيخ مبارك بن عبد الله) وفي وقت لاحق توجه (الشيخ عبد الله بن أحمد) إلى ساحل إيران ومن ثم إلى الكويت بحثاً عن مساندة قريبه الأمير، وعاد إلى نجد لنفس الغرض، وأخيراً توجه إلى مسقط للحصول على دعم من (سلطان سعيد بن سلطان البوسعيدي) وتوفي (الشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة) في مسقط في عام ١٨٤٨م .

واجه (الشيخ محمد بن خليفة آل خليفة) أوضاعاً مضطربة منذ توليه الحكم في عام ١٨٤٣م وفي عام ١٨٦٨م فر إلى قطر وقام بغزو البحرين، وقُتل أخوه (علي) قرب قلعة الرفاع في ١٨٦٩م . واستعاد الحكم مرة ثانية . ثم ألقى ابن أخيه القبض على (الشيخ محمد بن خليفة) ونفاه الإنجليز وتوفي في ١٨٩٠م .

وكانت هذه الأحداث السياسية المعقدة تجري حينما كان (القائد بيج) يزور شواطئ البحرين وعاهلها . وكانت الزيارة الودية لسفينة فرنسية دون نوايا قتالية تبعث بموجة من السرور في قلب (الشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة) وسجل (القائد بيج) هذه الملاحظة في سجل السفينة . ولاحظ قائد (لافاوريت) دهشة العاهل البحريني لعدم تواجد فرنسا في الخليج للتصدي للمخططات التوسعية للقوى الأخرى . وقد ألقى العاهل المسن نظرة طويلة إلى الضابط الفرنسي وقال بكل صراحة ولو بكآبة للقائد (بيج) :

" كيف يمكن لفرنسا التي كانت قوية تحت حكم (نابليون) لدرجة بث نفوذها عبر العالم كله، أن ترجع إلى الوراء حتى لم يعد أحد يتكلم عن فرنسا ؟ وكيف يُترك الإنجليز يبحرون في هذه المياه دون عرقلة ويغزون جزيرة أو ولاية لضمها إلى إمبراطوريتها ؟

"أنت أول قبطان ملك فرنسا ألقيه . وسفينتك أول سفينة تزورنا . ودعني أرحب بك ! عندما يأتي الإنجليز، لا أحد منهم يدخل إلى البرج . وإنما أستقبلهم خارج الباب . لكنك أرحب بك في محل إقامتي الخاصة . وأرحب بك كصديقي العزيز . وأود أن أكون صديقاً لفرنسا" .

ومهد هذا اللقاء الودي الطريق لإقامة أول علاقات دبلوماسية بين البحرين وفرنسا في يناير ١٨٤٢م . والرواية التالية والمأخوذة من سجل القائد (بيج) تشرح تفاصيل هذه المهمة الدبلوماسية الأولى الناجحة .



الشيخ محمد بن خليفة



الشيخ علي بن خليفة

# مقتطفات من سجل القائد البحري (بيج)

البحرين

١٨ يناير - ٢١ يناير ١٨٤٢م

الثلاثاء ١٨ يناير ١٨٤٢م

شاهدت أرض وجبال البحرين في الفجر . وتوجهت إلى المرساة بقليل من الأشرعة وسبرت الأعماق في طريقي . وتغير العمق بالتدريج من ٦٠ إلى ٤٢ قدماً حيث أقيت المرساة فيه .

كان الطقس مخيفاً واشتدت الرياح الشمالية الغربية والسماء داكنة . وأشار جهاز قياس الضغط الجوي إلى ٠,٧٦٥ متر مع رياح معتدلة . وأنزلت الونش والقوارب ونزلت على الشاطئ في قاربي . ووجدت قاربي غير ملائم في الظروف السائدة بحراً وجواً .

## تفاصيل المرسى :

قلعة في ٣٣٠ درجة غرباً .

خط العرض المراقب : ٢٦,٢٢ شمالاً .

العمق : ٤٢ قدماً، الرمال البيضاء وبها أصداف .

ذهبت إلى جزيرة (المحرق) حيث يقيم الشيخ عبد الله بن أحمد عاهل الجزيرة عادة . وتحاصر المحرق سلسلة صخور كبيرة مررنا بها إلى الغرب للوصول إلى المدينة التي تقع على قطعة من الأرض في الجنوب .

وصلت إلى الشاطئ مع البحارة وتوجهت إلى القلعة<sup>(١)</sup> التي تقع في أقصى الجنوب بقاعدتها في البحر . ومن حسن الحظ كان الشيخ موجوداً ولما وصلنا إلى أسفل القلعة

عرفنا بأن الشيخ كان يؤدي الصلاة في المسجد وسيعود . وأنهم بسطوا الفرش (الحصران) لنجلس عليها في انتظار الشيخ . وكان معي مرشد السفينة وضابط آخر .

ووصل الشيخ واتجه نحونا وهو يسير سيراً بطيئاً . وكان يمشي على الشاطئ مع بعض الحراس . وقدمنا أنفسنا له ، وأنذ كان في نفس المكان سفينة من نوع "بغلة" تحت التصنيع فاستفدنا من الاطلاع على صناعة السفن أثناء انتظارنا لعودة الشيخ الذي عاد بعد ساعة . وكنا على علم بتصنيع البغلة بخشب الساج تسد حزوز السفينة دون تعب . وكان شكل الكعب في الوراء عالياً بشكل حفظ الدقة من أن تمس الأرض دائماً ما بين الصخور والركامتين الساحليتين في تلك المنطقة . وكان على جنبي مقدم السفينة قطعنا خشب قويتان لتكونا متسابقتين . وكان كل شيء على ما يرام من حيث التصنيع . وكانت منتشرة على الرمال أربعة مراكب للدفاع البحرية وبجانبتها بعض المدافع المتأكلة والمدفونة جزئياً بين العشب البحري وأجزاء الصدف .

تكلم (حسن) وهو أخو (الشيخ عبد الله بن أحمد) أولاً . لكن تقديره في نظري لم يكن واضحاً . وتركنا الشيخ واقفين . فقلت له بصراحة هويتي أنا وأضفت قائلاً بأنني بصفتي قائد سفينة فرنسية حربية تمر بالبحرين ، كان علي أن أقدم احترامي للشيخ الشهير الجليل (عبد الله بن أحمد) . فنظر إلى مستغرباً ومر بأصابعه في لحيته ثم قال لي وهو يقرع على صدري بسبابته اليمنى : أنت قبطان سفينة لملك فرنسا ! فرنسا ! فرنسا !؟ وكرر كلمة فرنسا بإعجاب وركز على عينيه الصغيرتين اللامعتين رغم شيخوخته .

ثم أمسكني بزر من أزراري وقادني نحو باب قلعته الحديدي بخطوات شباب سريعة وهو يأمر حراسه أن يبقوا بعيدين عنه . وفتح الباب أمامنا ولم يكن الفناء إلا أكواماً من الأسمدة وأدوات الهدم . وللوصول إلى منصة القلعة، صعد الشيخ على جزء منهدم من جدار وكان على رأس الجدار سلم معلق بشكل خطير بواسطة حبل . وصعد الشيخ السلم ببطء . وقد تابعناه في هذه العملية المحفوفة بالمخاطر . ولم تكن القلعة مكونة إلا من سور مربع وعلى جنبه برجان دائريان . وعلى رأس كل برج مخبأ أو ملجأ عبارة عن منصة خشبية معرضة للرياح منهدمة متآكلة مفروشة بحصيرة واحدة فحسب . وكان هذا هو المجلس الذي رحب بنا الشيخ فيه .



الكابتن بيج قائد سفينة الزيارة



وقد رتب الشيخ لنا أشربة بغلة لنجلس عليها . وقدم لنا القهوة والغليون للتدخين<sup>(٣)</sup> .

وسألنا عن التفاصيل الدقيقة عن ملك فرنسا . كم عمره ؟ وما طوله؟ وهل هو ملك قوي ؟ وهل له سلطة ؟ وهل هو في الحكم من مدة طويلة ؟ كم سفينة عنده وكم عدد الجنرالات والجنود عنده ؟ وسألني الشيخ كيف حدث ، أن فرنسا رغم أنها كانت دولة قوية تحت حكم أحد ملوكها<sup>(٣)</sup> وبثت نفوذها عالمياً عزلت نفسها لدرجة أن لا أحد يسمع اسمها اليوم ؟ وكيف تسمح للإنجليز أن يتقدموا أينما شاءوا في المياه الخليجية كل يوم ويضموا أية جزيرة أو إقليم إلى إمبراطوريتهم ؟ فشرحت له أبعاد سياسات أوروبا كي يفهم عظمة فرنسا .

أنت أول قائد من قادة ملك فرنسا ألاقيه هنا . وسفينتك أول سفينة فرنسية تزورنا . مرحباً بك . لما يأتي الإنجليز، لا أحد منهم يدخل إلى البرج . وألقيهم خارج الباب لكنني أرحب بك في سكني الخاص . وأرحب بك كصديق عزيز وأود أن أكون صديقاً لفرنسا ."

وسألني ما إذا كنت سأخبر الوزير الفرنسي بالترحيب الذي لاقيته وأنقل له ملاحظاته وهل يعرف ملك فرنسا اسم الشيخ عبد الله ؟ فبعثت فيه بموجة من الفرح عندما سردت له تاريخه نفسه . وتكلمنا طويلاً كلاماً شيقاً رغم معرفتي القليلة باللغة العربية .

إنني لن أنسى ذلك المنظر الغريب ! كانت الرياح تهب بشدة من خلال الثقوب في البرج . والعيول الذي طلع من الحصان التي غطت الشبايبك أو الثقوب في السقف . وكان البرد قاسياً . وأمواج البحر تصطمم بأسفل الجدار بشدة، وتحمل صوت النباح البعيد الذي خلق جواً من الكآبة . وكنت مضطرباً وقلقاً . وكنت أفكر في سفينتي التي كانت قد رست بين صخور غير مألوفة وقاع بحر رملي . وكل ضربة من الأمواج كانت بمثابة ضربة على صدري . وبذلت أقصى جهد لأفهم كلمات لغة غريبة مثل العربية . ولم يكن هذا كله إلا عذاباً لي ودفعت لهذه المتعة ثمناً غالياً . وفرح الشيخ الطيب عندما عرف أن ملك فرنسا من عمره هو . ومن ثم حولنا الشيخ إلى صديقه الحميم وزيره (علي

أبو شعيب) الذي رافقنا إلى المدينة وإلى بيت الابن الثاني للشيخ وهو (الشيخ حسن)<sup>(٤)</sup> .  
وكان (الشيخ حسن) محافظ جزيرة ومدينة المحرق .

وقد جاءنا (الشيخ حسن) مع كل من أخيه علي وأحد أبناء عمه وعدد من الحراس . وله من العمر ٣٣ سنة ، جميل الوجه وذو وقار . واستضافنا بالقهوة والشربات والغليون . ورتب لي ولرفاقي سكناً<sup>(٥)</sup> مجهزاً بالسجاجيد والمخدات الخ . وجاء يزورني أكابر المدينة وعقدت المجلس معهم . وأمسى معنا (الشيخ حسن) وشاركنا في وجبة الطعام التي كان قد جهزها لنا . وبرز نوع من العلاقة الحميمة بيننا . وكان البيت الذي سكنه الطاقم واسعاً . وفي المساء أقيمت حفلة رائعة ولم أستطع أن أستأذن حتى الساعة العاشرة . وتلقت كرم الضيافة وبالغ الاحترام من الشيخ .

ويطول الليل إذا راودت الهموم ذهن الإنسان . وكان تلاطم الأمواج كثيباً ! وفي بعض الأحيان هبت الرياح بشدة في فناء البيت لتخشخش أبوابه ونوافذه بشكل مخيف .

### الأربعاء - ١٩ يناير ١٨٤٢م

استيقظت قبل الفجر . وبعد الصلاة قدمت لنا وجبة الإفطار وأنواع مختلفة من المربي . وقام الشيخ حسن بزيارتنا . وأعربت له عن قصدي للقيام بجولة استكشافية للجزيرة . فأرسل لنا بعض الخيل العربي الأصيل مزينة مثل الخيول الفرنكونية<sup>(٦)</sup> عليها سجاجيد ومسرحة بسرج رائعة ولو بدون ركاب . ورافقنا (مبارك) من مساعدي (الشيخ عبد الله بن أحمد) راكباً بغلاً . وكنت شديد التوق لرؤية سفينتي وكنت قلقاً للغاية . واستشعرت الطمأنينة عندما رأيت ساريتها تظهر بالتدريج فوق الرمال وكنت أسرع إليها . مثلما يفرح أي مدني بعد أن يسافر لثلاثة أيام بين الرياح الشديدة وينظر إلى المدخنة في سقف بيته من بعيد سالماً في نفس المكان ساطعاً ومشرقاً . وكان هذا شعوري عندما رأيت سارية سفينتي تتأرجح قليلاً وترفع أبراجها الجميلة عالية في الضباب .

وليست جزيرة المحرق إلا كومة من الرمال مع مجموعات من النخيل والقرى المنتشرة هنا وهناك . وبصفة عامة تشبه الأخطبوط الذي ينشر أرجله لكي يمسك الصخر . والجو هنا صحي فقرر الشيخ أن يتخذها مقراً لحكومته . ويسكن أكابر البحرين

مدينة المحرق . ويبلغ عدد السكان حوالي ١٠,٠٠٠ نسمة ويسكن ٤,٠٠٠ منهم المدينة . وتقع القرى على طول الشاطئ محاصرة بمجموعات من النخيل، ومياه الآبار في الأرض الباطنية . والمكانن التي تديرها الحيوانات ترفع الماء إلى الأعلى . وفي الشمال يوجد منظر جميل . فهناك مسجد فوق الصخر<sup>(٧)</sup> في حديقة يملكها (الشيخ محمد) شقيق (حسن) . ويقوم المبنى على أعمدة تصل إلى الماء . وسقفه يقف على صف أعمدة برواق مقنطرة مما يعطي له وضع هوائي . ووراءه تقع مجموعة من النخيل المروية جيداً وباردة في جوها وقد أعجبت بها وكان كل شيء فيها فاتناً .

وكانت النساء يتجنبننا ويختبئن ، ولم نر وجوههن قط إلا بصورة سرية أو مفاجئة . وعلى العموم وجدناهن جميلات . وكانت قطعة في الجنوب الشرقي قد احتلتها سماكون . وأينما ذهبنا اجتذبنا أنظار الجميع وكنا موضع نقاش بينهم .

وفي قطعة أرض رملية ثانية رأينا قلعة بجدارين مزدوجين<sup>(٨)</sup> وميداناً محصناً مهجوراً ! ومن سوء الحظ، فإن الضابط الذي كان في مرافقتي صادف حادثة . وسقط بحصانه على الرمل . والأرض من حولنا تشبه الصحراء العربية . أي سهل رملي وأفق بطل أحمر ونخلة في البعيد . وفوق قمة قبة الرمل جمال وجمال . وظهر البدوي مع رداء رأسه مكبراً عملاقاً بسبب تأثير السراب . وظهرت مسافات متناهية دون ظهور معالم معترضة بينها . وكانت السماء زرقاء بالرمال الملتفة حول أرجل الخيول العربية .

ولما رجعنا إلى المدينة تناولنا العشاء من الدجاج والأرز . ثم زارنا (الشيخ حسن) . وذهبنا إلى المدينة لكن السوق ما كانت مزودة بالبضائع بوفرة . وكانت المساجد متعددة وكثيرة . وقد سمح لنا بالوصول إلى المنبر الذي يخطب الملا منه ويقرأ الآيات القرآنية على الملا . ويرى هؤلاء العرب الأوروبيين نادراً فيبدون الصداقة نحوهم . ووجدت أينما ذهبنا مشاعر كريمة بحب الاستطلاع . وما أهانني أحد قط . وجاء الناس ليزوروننا حتى موعد العشاء . وكان كرم ضيافة (الشيخ حسن) لم ينضب أبداً . وامتد كرم ضيافته إلى أفراد الطاقم أيضاً .

ليلة أكثر هدوءاً . إن الشيخ عبد الله حاكم سخي . ولا ينتزع أموال الناس . يفرض الضرائب على صيد السمك والتمور فقط .

الخميس ٢٠ يناير ١٨٤٢م

كان قصدي أن أزور الدمام<sup>(١)</sup> . معقل القرصان (رحمة بن جابر) وهي الآن تابعة للشيخ ( عبد الله بن أحمد) وسيهات التي كان يحكمها ابنه الأكبر (مبارك) وأزور في سيهات (خالد بن سعود)<sup>(٢)</sup> شقيق (عبد الله بن سعود)<sup>(٣)</sup> الذي أرسله (إبراهيم باشا)<sup>(٤)</sup> وهو صغير السن ليتربى هناك، عقب احتلال (الدرعية)<sup>(٥)</sup> وأظن بأن الباب العالي (السلطان عبد المجيد)<sup>(٦)</sup> أرجعه ثانية إلى السلفيين بمرافقة (خورشيد باشا)<sup>(٧)</sup> الذي كان عليه أن يساعده في استعادة الحكم في أقاليم أبيه . واستوطن (خالد) (القطيف) لكن السلفيين لم يعترفوا به . ونظراً لأنه تربى في (القسطنطينية) وتعود على الترف المنسوب إلى تلك المدينة بينما كان السلفيون أشداء في أنماط حياتهم سواء في اللبس أو الأثاث . وما كانوا راضين (بخالد) كقائد لهم . فحصل الانقسام والتمرد، واستولى السلفيون على القطيف، فعاد (خالد) إلى سيهات وقام بمحاصرتها بجنوده دون حماس . وكان جنوده مكونين من العرب والأتراك على السواء . وكانت النزاعات والخلافات تسود الساحل كله .

ولا أستطيع أن أقوم بزيارة القطيف كما كنت أنوي . ومن هناك أردت أن أتوجه إلى (تاروت)<sup>(٨)</sup> وأزور تلك الجزيرة . فخابرت (الشيخ عبد الله بن أحمد) عن المشروع . فقال لي بأنه صديق لـ (خالد) وحليفه ومسانده، وبأن ابن (خالد)، محافظ الدمام صديق حميم له، وأنه يعرف كل شيء يعرفه (خالد) فلا فائدة من زيارتي لـ (تاروت) . وليس صحيحاً بأن تاروت فوضت للإنجليز رغم أن ضابطاً إنجليزياً أرسى سفينة صغيرة في البحرين وقام بزيارة الجزيرة وحاول أن يتدخل في تجارتها لكنه لم ينجح ولم يتم التنازل عن أي حق في (تاروت) لصالحهم . تصور ! يتنازل (خالد) عن (تاروت) لصالح الإنجليز !! . (تاروت) تخص (القطيف) وفي الحقيقة (تاروت) جزء من البر الرئيسي ومتصلة به برصيف رملي عند أدنى المد حيث يمكن الركوب إليها على ظهور الخيل . و(تاروت) شبه مهجورة . وميزتها الخاصة تكمن في وجود عين عذبة داخل القلعة . وفي رأيي لن يمنع كل ذلك الإنجليز من أن يثبتوا فيها . وإذا حصلوا على التنازل وأقاموا فيها فلا تستطيع أية قوة عربية أن تخرجهم من هناك . ونظر إلي (الشيخ عبد الله بن

أحمد) بدهشة عندما ذكرت له تنازل (خالد) عن حقه لصالح الإنجليز، فنفي ذلك وقال بأنه خارج الإمكان أن يحصل ذلك على يد العرب .

أردت أن أستأجر بغلة لهذه الرحلة لكن الشيخ (عبد الله بن أحمد) لم يسمح بذلك وقال بأنه يعيرني بغلته التي ركبها في ١٨ يناير عندما ذهبت لأسلم عليه . وأراني رسالة مختومة من (خالد) نفسه كان قد أرسلها ابنه (مبارك) .

وعقدت اجتماعاً مع (الشيخ عبد الله بن أحمد) هذا الصباح، وكان يستعد ليتوجه إلى الزيارة<sup>(١٧)</sup> على البر الرئيسي التي كانت إحدى توابعه . فأجل رحلته إلى الغد . وجاءني صباحاً (علي أبوشعيب) وزيره وصديقه الحميم ليرافقني لأزور الشيخ الذي كان ينتظرني . وتناولت فطوري ثم رافقته . ووجدته مع ابنه (حسن) و(أحمد) . فخلص منهما وأعربت عن رغيتي في أن يبقى معنا (علي أبو شعيب) كطرف ثالث . ففرح الشيخ جداً بهذا الاقتراح . ثم عقدنا "كلاماً" مع الشيخ دام ساعتين<sup>(١٨)</sup> .

وكان الشيخ معجباً بما شرحت له من جغرافية الخليج وأشرت إلى أهمية ممتلكاته ومخططات الإنجليز . وقد أنهيت الحديث لأنني تعبت كثيراً بسبب قلة إلماي بالكلمات العربية لأنقل له ما أردت أن أنقله . وكان الشيخ يرغب في أن أوصل كلامي . لكنني عرضت كافة المعلومات التي كنت حريصاً عليها . فقلت له بأني تعبت . فصافحني الشيخ وقال أنني صديقه وطلب مني الوعد أن أرسله فوعده .

وتوجهت إلى مدينة المنامة راكباً قارباً مفتوحاً . ومجيئنا إلى جزر البحرين أثار كلاماً متحمساً بين الناس . ولم يكن يعرف أحد علم (راية) فرنسا وتساءلوا لماذا هذه السفينة الكبيرة ؟ لماذا جاءت ؟ ولماذا عقدت مفاوضات طويلة مع (الشيخ عبد الله بن أحمد) ؟ كل واحد يبتسم عندما أقول لهم إنه مجرد لقاء ولا شيء غيره .

إن المنامة مدينة تجارية في جزر البحرين والمحرق عاصمتها الإدارية . ويسكن كبار الرجال في المحرق في حين يملك التجار ورجال الأعمال بيوتاً في المنامة . والمحرق ليست كبيرة والسوق فيها تتعامل في الاحتياجات اليومية . والسوق في المنامة أكبر وتساوي سوق مسقط في حجمها . وتكثر فيها خانات للنزلاء ولقد زرتها لأتعرّف عليها . وأكبرها "خان الجادر وهو لبيع الأقمشة" يملكه البانيان . ويكثر عدد البانيان في السوق وهم يبيعون القماش والبضائع التجارية من بومباي . ويوجد تجار عرب يمارسون التجارة مع تجار

الإحساء<sup>(١٩)</sup> . إن المنامة شريك تجاري لكل من البصرة وبوشهر ومسقط (للمرور والنقل) وبومباي . والمنسوجات الصوفية من الإحساء تعتبر من أغلى أنواعها . خاصة البرنس (غطاء الرأس والظهر ويشبه القميص الطويل) . وتنتج البحرين التمر . وفي جنوب المدينة توجد غابة من النخيل تشبه ستاراً وهي جميلة المنظر .

وتكمن ثروة المدينة في صيدها اللؤلؤ . ومن سوء الحظ لست هنا في موسم صيد اللؤلؤ حيث يكثر عدد السفن والنشاط التجاري . والآل يسود الهدوء . ويسكن المنامة كالمحرق عدد كبير من تجار اللؤلؤ . ويمول هؤلاء التجار صناعة اللؤلؤ برأسمالهم بفوائد عالية جداً ويجعلون الصيادين والغواصين معتمدين عليهم كلياً . كما يؤجرون لهم سفن الغوص وهكذا لا يستطيع الغواصون والصيادون التخلص من الدائنين إلى الأبد . والبانيان أثرياء ويعرفون أساليب المضاربة . ومثلهم بعض الإيرانيين والآخرين من جنسيات عربية مثل عبد العزيز والشيخ والبنعلي الخ .

ولا يسكن الناس المنامة طول السنة بسبب رداءة طقسها . وتوجد هنا بيوت واسعة مثل : بيت (محمد بن خليفة) ابن ولد شقيق (الشيخ عبد الله بن أحمد) بجوار البحر ومنظره جميل بأعمدته . وأمام بابه ١٠ عربات للمدافع البحرية في حالة جيدة رغم أنها قديمة . ٧ منها مصنوعة من الحديد و ٣ من النحاس . وأصلها دون شك برتغالي . ورأيت على أحد المدافع البرونزية شعار النبالة البرتغالي . والتشابه بين أشكال المدافع أقنعني بأن أصلها واحد .

كان البرتغاليون متركزين في جزيرة البحرين الرئيسية بالقرب من المنامة غرباً على بعد حوالي فرسخ واحد . وتوجد حتى اليوم آثار قلعتهم<sup>(٢٠)</sup> .

ويوجد في المقابل صخر<sup>(٢١)</sup> كان يستخدم كمنار للميناء الصغير الذي اختاروه . وكان الصخر محاطاً بفشوت عمقها حوالي ١٢ أو ١٨ قدماً وتبقى هذه المدافع على الجزيرة رمزاً للقوة التي كانت مهيمنة أيام زمان . ودون شك هناك مجال مفيد للقيام بأبحاث في سيطرة البرتغاليين في الخليج ، في البحرين وبوشهر . الخ . إنهم اختاروا مواقع قوية ورغم أنه لم يبق حتى واحد منها اليوم إلا أن دراسة هذا الموضوع قد تكون مفيدة للمستقبل . والغريب أن روعة هرمز نالت صيتاً رغم أنني لم أقرأ شيئاً عن هرمز . (وهذا يشكل موضوعاً ملائماً للبحث في كتابات المؤرخين البرتغاليين) .

توجد قلعة<sup>(٢٢)</sup> خارج المدينة وهي قلعة كبيرة مربعة بأبراج مهجورة متهدمة في الداخل وفيها حوض ماء عذب أو ماء بئر لا أعرف بالضبط . واليوم تستخدم كاصطبل أو حديقة عامة لتربية أفراس ولتوليد الخيول الممتازة التي يملكها شقيق الشيخ (عبد الله بن أحمد) . ويسكن هذا الشيخ وأبناؤه السبعة جزيرة البحرين في بيوتهم الريفية في الرفاع<sup>(٢٣)</sup> .

وعلى بعد بضع ساعات فقط إلى الجنوب يوجد كل شيء بكثرة كالجبال والهضاب والنخيل والتمر والماء العذب الخ .

أما الخيول العربية فما أروعها !

رجعت إلى المحرق مساءً . وكنت أريد أن أتوجه إلى الدمام في نفس المساء أو الليل . وجاءني صاحب البغلة الذي وافق على أن يؤجرها لي . ولكن كان منظره قبيحاً للغاية وكرهته . وكان صعباً في تعامله معي وشعرت بأنه لن يسمح لي بحرية التصرف في ترتيب رحلتي حسب رغبتي . وما كان عندي وقت إلا قليل . وإذا طلبت توسط (الشيخ حسن) أو أبيه في الموضوع سيصبح معقداً للغاية، وكذلك لم تعد زيارتي لـ (تاروت) ضرورية فالغيت المشروع .

بناءً على دعوتي جاء (الشيخ حسن) وصديقه (مبارك) للعشاء .

اضطررنا للتوقف في المحرق لثلاثة أيام بسبب الرياح المضادة التي هبت بشكل متواصل . ولم يتخلف الشيخ في كرم ضيافته أبداً لكنني تذكرت المثل الذي يقول أن الضيف تفوح منه رائحة سمك بعد ثلاثة أيام . وكنت أخشى أن يحصل ذلك بخصوصي أنا . لكنه لم يتحقق بالفعل . وزارنا مزيد من الناس في ذلك المساء . وتعبنا واستأذنا مبكراً .

الجمعة - ٢١ يناير ١٨٤٢م

لقد نفذ صبري لكي أعود إلى سفينتي . وتغيرت الرياح في الليل . وعدت صباحاً لأغادر . وكان (الشيخ حسن) قد أخبرني بأنه سوف يودعني على متن (لافاووريت)، ولكنه بعد صلاة الفجر جاءني وهو في لبس ملكي فاخر وقال لي بأنها كانت مناسبة

دينية مهمة وكان عليه أن يذهب للمسجد ظهراً مع المسلمين كقدوة حسنة للشعب .  
وأضاف قائلاً : "أنت تودعنا ولا أستطيع أن أتابعك على السفينة . ولكن هل تستقبل  
(مبارك) بلطف إذا أرسلته لك ؟" ثم شكرني بمنتهى الحنان . ثم جاءني شخص مهم  
آخر وهو (علي أبو شعيب) . وهو أيضاً كان يريد أن يأتي على متن السفينة . وهو راض  
مني لأنني أبديت الثقة فيه لما طلبته أن يكون الجانب الثالث أثناء مقابلتي السرية  
الثنائية مع (الشيخ عبد الله بن أحمد) . وأنه لما رأى (حسن) ومرافقيه شعر بانزعاج وكان  
هذا الشعور متبادلاً . وأراد الاثنان أن يتخلصا من بعضهما البعض وقاما بالانصراف كي  
يعودا بشكل منفرد الواحد دون الآخر . وأقسم (علي أبو شعيب) بصداقتي وجعلني أعده  
بأن أكتب للشيخ الذي نقل عن طريق (علي أبو شعيب) بأنه يفرح إذا رأى خاتمي على  
الرسالة .

وبعد الغداء رجعت إلى سفينتي . وكانت المدينة بأكملها مفعمة بابتهاج . وفي  
الصباح الباكر سمعت صوت المؤذن : "....الله أكبر ...." فتذكرت زيارتي للمسجد  
الكبير في المنامة قبل أمس . حيث رأيت المنبر يؤذن منه المؤذن ويدعو الناس للصلاة  
خمس مرات في اليوم . ولا توجد منارات أو أبراج هنا في المساجد لأن السلفيين يرفضون  
مثل هذه الإضافات التجميلية . إن المساجد كبيرة ومبنية بالحجر . وفيها مقنطرات  
وفرشها مبلطة بأصداق صغيرة وجدرانها مبيضة . وما فيها مفروشات غير الحصر .  
بالنسبة إلى البيوت فإن منظرها الداخلي بائس لأن الجدران خشنة الطلاء . واضطررنا إلى  
أن نعلن عن زيارتنا رسمياً كي يجلبوا لنا السجاجيد الإيرانية والحرير لاستخدامنا .  
وبالمناسبة رأيت عدداً من جنود (خالد) في المنامة وليس لديه نقود ليدفع لهم المعاش .  
فيرسلهم إلى جزيرة البحرين حيث يجدون فيها المراعي لخيولهم وبعض التسهيلات  
البسيطة الأخرى . ويرجع كل هذا لصداقة (الشيخ عبد الله بن أحمد) وكياسته . ولأن  
عبء الحياة في البحرين أقل منه في البر الرئيسي .

وجدت في كل مكان مشاعر البهجة والأفراح . وكان الرجال الكبار يركبون خيولهم  
المزينة . وحتى أفقر الناس أيضاً زينوا ملابسهم البالية بنوع من التجميل . وليس كل  
واحد منهم أحسن ما كان يملكه . واحتشد الأطفال على الشاطئ وكان مع كل واحد  
منهم إما عصا أو عود . وغنوا كفرقة موسيقية أغاني بآلات موسيقية وترية وهوائية . وفي



وسطهم يرפרف علم فوق سعف من النخيل . وشكلوا حلقة ورقصوا رقصات محلية بحركات الجسم وإيماءاته .

ويجب زيارة هذه البلاد لنعرف أنماط احتفالاتهم وأفراحهم . ورغم أنني كنت بعيداً عن الشاطئ إلا أنني سمعت أصوات الأطفال وآلاتهم الموسيقية البسيطة التي نقلتها لآذاني الرياح المواتية ووصلني (مبارك) راكباً بغلته وسرعان ما ودعني عندما رفعت أشرعة (لافاووريت) . وكان أسفه الشديد بادياً لمغادرتنا وودعنا بتحياته العديدة المتكررة معبراً عن صداقته وشكره لنا .

وعندما غادرت المحرق هذا الصباح ، رأيت منظرًا جميلاً في وسط القناة التي تفصل المحرق عن المنامة . وكان الأفق حاداً والجو صافياً والشمس ساطعة . وكانت الرؤية شفافة بكافة تفاصيل الساحل كأكواخ السماكين وقواربهم على الرمال وبيوت التجار وأشجار النخيل التي تعطي للبحرين منظر الخصوبة والنضرة، ولا توجد هذه الخصائص في المناطق الوعرة .

وتوجهت شرقاً ومررت بالصخر الكبير الذي يمتد بجانب مياه البحرين، ولم أستطع أن أتأكد من دقة الأعماق المذكورة على الخريطة . فإن كافة المعلومات التي دونها الضباط الإنجليز عن الخليج ليست دقيقة لكنها تكفي لأغراض الملاحة العادية .

## القائد البحري – تيوجين بيچ

ولد في ولاية (شامبان) في فرنسا في ٣١ مارس ١٨٠٧م . وكان أبوه صاحب فندق . ودرس في كلية الهندسة (بوليتكنيك) واختار الخدمة في القوات البحرية . وفي نوفمبر ١٨٢٧ كان طالباً عسكرياً على سفينة (لاكوريي) أثناء عملياتها في الشرق . وشارك في عمليات الجزائر برتبة ملازم ثان .

وفي ٣٠ مايو ١٨٣٢م تعرض لتحطم سفينة قرب المكسيك . وانتهاز الفرصة لدراسة سواحل المكسيك . وأبحر على الشاطئ الغربي لأفريقيا (١٨٣٤م) على متن سفينة (ترايدنت) في مارس ١٨٣٦م .

وكان نائب رئيس أركان في أسطول (شارلز بودن) أثناء حملته على المكسيك . وفي بطولة نادرة أثناء العمليات في (فيراكرون) تنكر بلباس ملاح عادي وقام بجولات استطلاعية في القلاع وحصل على معلومات قيمة عنها مما أدى إلى نجاح العمليات . وفي ١٨٤٠م خدم في هيئة الأركان وتميز بحماسة وسرعة فهمه وسداد رأيه أثناء محاصرة (بيونس أيرس) .

وفي مارس ١٨٤١م نال ترقية لرتبة مقدم وعين قائداً لـ (لافاووريت) وبهذا المنصب قاد حملات جلية لمدة ٣ سنوات في كل من المحيط الهندي والخليج وبحر الصين . ومن منجزاته الرائعة رحلته عبر (نهر يانجتسي) إلى (نانكنج) دون خريطة .

وفي يوليو ١٨٤٤م عين ضابطاً معاوناً للأميرال (بارون ماكاؤ) وهو وزير بحري للملك (لويس فيليب) . ورافق (بيج) الملك (لويس فيليب) في زيارته للملكة (فيكتوريا) ونال وساماً وعمل قائد سفينة في كل من المحيط الأطلنطي والمحيط الهندي في ١٨٤٥م وترقى لرتبة عميد بحري .

وفي ١٨٥١م ترأس القسم البحري لـ (أوسيانا) وتولى منصب اللواء البحري في (طولون) في ١٨٥٤م .

وفي ١٨٥٩م قاد الفريق البحري (بيج) حملة في بحر الصين . ثم ترقى إلى رتبة الأميرال في أغسطس ١٨٦١م، وعين القائد العام للقوات البحرية .

وتوفي (بيج) في باريس في ٣ فبراير ١٨٦٧م .

وكان (بيج) كثير الاطلاع وذا خبرة عظيمة وكتب مذكراته مع رسومه الشيقة ولايزال كثير منها غير منشور .

## سفينة (لافاووريت)

مواصفات :

فرقاطة خفيفة صنعت في (طولون) في نوفمبر ١٨٢٧م .

الطول : ٣٨ متراً .

السائل المسحوب الأمامي : ٤,٨٠ متراً

الوزن : ٧٥٢ طناً .

صاري المركب : ٢٣,٧٥ متراً .

الأسلحة : ٢٤ مدفعاً بحرياً .

الطاقم : ١٦٥ (منهم ١٦ ضابطاً) .

تاريخها :

١٨٢٩م : غادرت (طولون) وأبحرت إلى صقلية لمدة شهرين .

١٨٢٩م - ١٨٣٢م : قامت برحلات عبر العالم إلى كل من رأس الرجاء الصالح،

ومدراس في الهند، وسنغافورة، وأستراليا، ونيوزيلندا .

١٠ يونيو ١٨٤٤م : فصلت عن الخدمة في القوات البحرية .

# الهوامش

١ - هذه قلعة أبو ماهر وحسب خريطة برتغالية موجودة في المكتبة الوطنية في باريس ترجع القلعة إلى الاحتلال البرتغالي في القرن السادس عشر . وفي ١٨٢٨م عندما قامت قوات السلطان سعيد بن سلطان من عمان بغزو القلعة باءت بالفشل . لكنه دمر بعض المباني . وقد أعاد الشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة القلعة إلى وضعها الأصلي في ١٨٤٠م . وفي ١٨٤٣م حوَّص الشيخ عبد الله في نفس القلعة على يد حفيد ابن أخيه محمد بن خليفة بن سلمان آل خليفة . وفي ١٨٦٩م بعث الإنجليز حملة تأديبية ضد الشيخ محمد بن خليفة . ودمر فيها أسطول محمد بن خليفة كما دمرت قلعة أبو ماهر . ويبقى الآن مبنى واحد فقط من بين أربعة مبان وكذلك بعض الأجزاء من سور القلعة حيث كانت سابقاً ٤ معازل ما بين الأسوار . ودمرت بقية الأجزاء في القرن التاسع عشر . وفي بداية القرن العشرين استخدم المعقل كمحجر للحجر الصحي . وأعاد دائرة التراث أخيراً المعالم إلى ما كانت عليه . وتقع القلعة الآن على القاعدة العسكرية لخفر السواحل .

٢ - الغليون يستخدمه الإيرانيون بكثرة وهو عبارة عن أنبوبة تسمح للدخان أن يمر بها من خلال ماء معطر قبل أن يدخله المدخن .

٣ - أي نابليون .

٤ - ليس الشيخ حسن بن عبد الله الابن الثاني بل الابن الثامن . وكان للشيخ عبد الله بن أحمد عشرة أبناء . وهم كل من راشد وحمد ومبارك وناصر وأحمد ومحمد وحمد وحسن وعلي وراشد . وكان للشيخ حسن بن عبد الله ثلاثة أبناء . وهم كل من راشد وعبد العزيز وداد .

ملاحظة :-

ليس الشيخ حسن بن عبد الله الابن الثامن بل التاسع . إذ كان للشيخ عبد الله بن أحمد عشرة أبناء وهم كل من : راشد، وأحمد، ومبارك، وعلي، وناصر، وأحمد، ومحمد (١٢٨٦هـ)، وحمد، وحسن، وراشد (شجرة العائلة لعام ١٩٨٢م في مركز الوثائق التاريخية بالبحرين) .

٥ - كان الشيخ حسن بن عبد الله قد بنى هذا البيت ما بين ١٨٣٠ - ١٨٤٠م . لكنه معروف باسم "بيت الشيخ عيسى" اسم الحاكم الذي حكم البحرين من ١٨٦٩م إلى ١٩٣٢م . وأنقذ هذا البيت المهجور من الاختفاء في عام ١٩٧٥م عندما وضعت الشيخة هيا آل خليفة مديرية الآثار

والمتحف البحرينى خطة لإحيائه وإنشاء ميدان عام في الموقع . وبدأ العمل في هذا الشأن في ١٩٧٦م .

#### المصادر :

"هاري كلبرت(كلير) ولاندي (كرستيان)" - "بيت الشيخ عيسى في البحرين" الأبحاث في الحضارات العظيمة، مذكرة رقم ٨ الطبع في باريس ١٩٨١م .

٦ - كان الفرنكونيون فرسان السيرك من البندقية بإيطاليا الذين استوطنوا فرنسا في ١٧٢٨م . وكان كل من أنطوان ولورانت وفيكتر وشارلز فرانكوني مدراء سيرك . وفي القرن التاسع عشر، كان لوران فرانكوني معلم الفروسية لعائلة (أورلينز) . وابنه (فيكتور) نظم السيرك صيفاً وشتاءً . ودرب هذا الفارس الرائع الخيول (لنابليون الثالث) لمدة طويلة . وكان (فيكتور) أول من أنشأ أول ميدان سباق الخيل في باريس في ١٨٤٦م .

٧ - المسجد الذي رسمه القائد (بيج) لا يرى على الأرض .

٨ - قلعة عراد - إن العرب هم الذين شيدها وليس البرتغاليون كما يعتقد البعض . ورممت في فترة من ١٥٥٠م إلى ١٦٠٠م . وفي الثمانينات في القرن العشرين أعيدت القلعة إلى ما كانت عليه عقب أبحاث أثرية . واليوم أصبحت القلعة مركزاً ثقافياً .

#### المصادر :

(الدكتور أرشيبلد وولز) (قلعة عراد - البحرين) مديرية السياحة والآثار . المطبعة الحكومية

- وزارة الإعلام - فبراير ١٩٨٧م .

(الرستماني أحمد حسن) (الخليج وتراثه الأثري) دبي - ١٩٩٤م ص ٢٢٨-٢٣٢ .

٩ - الدمام اليوم ميناء خليجي في العربية السعودية . وكان الدمام اسم قلعة بنيت على صخر في الساحل الشمالي للمدينة كما هي اليوم . ومنشأ القلعة غامض غير أن قاعدتها ترجع إلى أيام (رحمة بن جابر الجلاهية) (دمرت في ١٩٥٧م كي تحل فرضة محلها لاستخدام سفن صغيرة) وبنى القرصان قلعة في الدمام بعد أن تحالف مع السعودية في حوالي ١٨٠٩م . لكن السعوديين هدموا القلعة في ١٨١٦م لما تركهم (رحمة بن جابر) لشن هجوم على البحرين . وبعد سنتين ساعد (رحمة) قوات (إبراهيم باشا) التركية المصرية في غزوها للقطيف . مما أدى إلى استرداد نفوذه في الدمام . . فقام بتشبيد القلعة من جديد وتحصيناتها كما بني قرية على رأس هدة لتكون قاعدة لشن هجمات ضد آل خليفة في البحرين . وفي ١٨٢٦م استولى آل خليفة و (بنو خالد) على الدمام بعد أن قتل (رحمة بن جابر) في معركة بحرية . ولمدة ١٧ سنة فيما بعد، وقد حررها (الأمير فيصل بن تركي) من نجد، وذلك في ١٨٤٤م . وعقب بروز نزاع مع (محمد بن خليفة آل خليفة) أعاد آل سعود السلطة إلى أبناء (عبد الله بن أحمد آل خليفة) وحاول

المغتربون مرة أخرى استعادة البحرين لكن الإنجليز طلبوا من السعوديين أن يطردوهم . وبعد فشل هذه المحاولة قصف الإنجليز المدينة في ١٨٦١م وطردوا المعتصبين منها . وفي ١٨٦٦م تصدت الحامية في الدمام للغزو البحري الإنجليزي الذي كان انتقاماً لحادث وقع في صور في عمان . وسقطت الدمام في أيدي الأتراك نتيجة حملة شنّها العثمانيون في ١٨٧١م واحتل العثمانيون جزءاً كبيراً من الجزء الشرقي للجزيرة العربية . وتحت الإدارة العثمانية أهملت القلعة تماماً وخربت وعادت الدمام إلى أهلها كقرية لصيد السمك . . وأصبحت قرية سعودية مرة أخرى .

- ١٠ - (خالد بن سعود) شقيق (عبد الله بن سعود) الأصغر . كان أمير نجد من ١٨٣٩م إلى ١٨٤١م .  
١١ - كان (عبد الله بن سعود) أمير نجد من ١٨١٤م إلى ١٨١٨م وهو الابن الأكبر للأمير (سعود بن عبد العزيز آل سعود) الذي حكم من ١٨٠٣م إلى ١٨١٤م . وأرسل الرئيس السلفي إلى القاهرة في ١٨١٨م حيث رحب به فيها (محمد علي) بكل احترام وإعزاز . ومن القاهرة أرسل (عبد الله بن سعود) إلى اسطنبول برسالة معه يلتمس العفو من الحاكم العام . لكن السلطان كان عنيداً وطلب الأصوليون معاقبته . وبملايس بالية استعرض ابن سعود في شوارع اسطنبول لثلاثة أيام . وفي اليوم الرابع ضرب عنقه .

مصدر :

- "جلبرت سينو" (محمد علي ١٧٧٠ - ١٨٤٩م، بيجماليون، باريس ١٩٩٧م، ص ١٢٩) .  
١٢ - (إبراهيم باشا) ١٧٨٩-١٨٤٨م - الابن الأكبر لـ (محمد علي) الذي شن حملة ناجحة ضد السلفيين في الجزيرة العربية من ١٨١٦م إلى ١٨١٩م .  
١٣ - قام (إبراهيم باشا) وقواته بغزو الدرعية في ١٥ سبتمبر ١٨١٨م . وكانت حملة (إبراهيم باشا) في الجزيرة العربية قد بدأت في ٢٣ سبتمبر ١٨١٦م .  
١٤ - وليس هو (عبد المجيد) الذي خلف (محمود الثاني) الذي دبر قلب نظام (سليم الثالث) في يناير ١٨٠٨م .  
١٥ - (أحمد خورشيد باشا) - محافظ الإسكندرية في ١٨٠١م ثم حاكم مصر من فبراير إلى يونيو ١٨٠٥م . واستبدله (محمد علي) فيما بعد ترقيته إلى رتبة "باشاليك" حلب لكن الشعب طرده منها وتم إعدامه لاحقاً .  
١٦ - جزيرة (تاروت) تقع اليوم في العربية السعودية عبر مدينة القطيف . وفي أدنى المد يظهر طريق طبيعي ضيق، عرضه من ١٠ إلى ٢٠ متراً و٤ كم طولاً يربط بين الجزيرة والمدينة . وتقع مدينة (تاروت) التاريخية في وسط الجزيرة . وفي القرن السابع عشر شيد البرتغاليون قلعة فيها على

قاعدة آثار لمبنى أقدم . و (تاروت) عبارة عن مجموعة ه قرى وأكبرها كل من (تاروت) و (دارين) . وتمت إعادة تعمير القلعة أخيراً .

المصدر :

موسوعة الإسلام : الرستماني (أحمد حسن) - "الخليج وتراثه المعماري" دب ي ١٩٩٤م  
ص ٢٤٣-٢٤٥ .

١٧ - الزبارة - ميناء على الساحل الغربي لقطر . وفي ١٧٧٦م هاجر (الشيخ محمد بن خليفة) شيخ عتوب آل خليفة وأقاربه من الكويت واستوطنوا الزبارة حيث ازدهرت تجارة اللآلئ . . وهكذا بدأ تاريخ العصر الحديث في المنطقة . وسرعان ما جاهد آل خليفة لتقوية موقفهم في الزبارة وترقية التجارة فيه وبناء أسطول بحري كبير . وقاموا بتحويل قرية الزبارة إلى مدينة كبيرة، كما أقاموا قلعة فيها باسم قلعة (مري) .

١٨ - كلام تعني "مقابلة" .

١٩ - الإحساء من واحات نجد (الآن في شرق العربية السعودية) وكان هذا الاسم يطلق على المنطقة الشرقية كلها . وعاصمتها هي (الهفوف) وتقع حوالي ٦٠ كم من الخليج إلى الداخل . وتمتد الأرض الزراعية في الإحساء إلى ١٢,٠٠٠ هكتار وفيها أشجار التمر ويبلغ عددها ٣ ملايين شجرة وهي أغنى وأكبر واحة في السعودية . وتجري فيها المياه وفيها وفرة التمر من أنواع ممتازة . وفيها البغال البيضاء التي تصدر إلى كل من مصر والعراق بصفة خاصة . ويصنع في الإحساء قماش لإنتاج (البشوت) الشهيرة . وهذه الصناعة رابحة في المنطقة . وفي ١٩٥٢م نقلت العاصمة الإقليمية إلى الدمام من الإحساء عندما أصبحت الإحساء المنطقة الشرقية .

مصدر :

الموسوعة الإسلامية

٢٠ - هي قلعة البحرين مكونة من حصنين أو برجين مختلفين . ووجدت آثار أحدهما بني في القرن الحادي عشر، تحت رمال الشاطئ . وهذا الجزء جزء إسلامي للقلعة، والجزء الثاني شيد على قطعة أرض صلبة على حدود الشاطئ . وهذه القلعة يرجع تاريخها إلى القرن السادس عشر . وهي رائعة المنظر للغاية كصرح يرتغالي. وتربط أسوارها الأبراج الأربعة . وكانت الدكتورة (مونيك كرفان) مسئولة عن الحفريات في قلعة البحرين . ويتم ترميم القلعة لإعادتها إلى ما كانت عليه .

أنظر :

(الدكتورة مونيكا كرفان) - "البحرين في القرن السادس عشر : جزيرة منيعة" \_ وكتاب آخر باللغة الفرنسية : "قلعة البحرين للعصر البرونزي أو العصر البرتغالي" باريس ١٩٩٨ م .  
والوثيقة - العدد الثاني ، د. أباحسين ود. مونيكا ص ١٧٤-١٩٣ . يناير ١٩٨٣ م .

٢١ - هذا الصخر لا يزال كآثر تاريخي لمنار بني عليه . وموقعه غرب قناة مؤدية إلى الميناء الصغير للسفن المارة . وكان البرج أو المنار مهم جداً لإرشاد السفن إلى القناة التي كانت ضيقة جداً . وذكر (بلني) أخطار القناة التي واجهها الملاحون عند الدخول إلى البحرين (تايلوس) آنثذ .  
أنظر :

كتاب (مونيكا كرفان) .

٢٢ - هي قلعة الديوان أو قلعة المنامة وبنيت في بداية القرن الثامن عشر . كان لها في البداية أربعة أبراج دائرية تربطها أسوار بفتحات تطلق منها النار وهي اليوم مقر للأمن العام .  
٢٣ - الرفاع : هي نخيل في جنوب المنامة . وشيدت قلعة الرفاع في القرن السابع عشر على قمة جبل تشرف على سهول رملية . وأخذها آل خليفة سكناً لهم لأول مرة عندما وصلوا إلى البحرين لأول مرة في ١٧٨٣ م . وفي ١٨٦٩ م اغتيل الحاكم (الشيخ علي بن خليفة آل خليفة) على يد أخيه (محمد بن خليفة آل خليفة) في القلعة . وتم إعادة القلعة إلى وضعها السابق . وفيها متحف .

ملاحظة :

لم يقتل علي بن خليفة على يد أخيه محمد بن خليفة . كما أنه لم يقتل في القلعة . وقبره اليوم في موضع (بوكوارة) بالبحرين (الوثيقة) .